معالمٌ في مسيرة العلامة أحمد بابا التنبكتي والشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر الونغري التنبكتي ت 1002هـ

الأستاذ الدكتور: عبد القادر إدريس ميغا

معهد زايد للعلوم الاقتصادية والقانونية ببماكو

e-mail: arbouna1963@gmail.com

الدكتور: عبد الرزاق إدريس ميغا

جامعة الآداب والعلوم الإنسانية ببماكو

e-mail: razakmaiga3@gmail.com

المستخلص

بعد مسيرة هذا البحث يمكن القول: إن الشخصيتين أحمد بابا ومحمد بغيوغو قد ساهما بشكل كبير في دفع عجلة البحث العلمي، وأنارا الطريق لكثير من طلاب العلم والمعرفة آنذاك. وقد اشتغل أحمد بابا منذ طفولته بطلب العلم، والجدّ والاجتهاد في دربه حتى فاق معاصريه، بل سابقيه، وصار فريد عصره يُلجأ إليه في الضروريات، ونجم دهره يهتدى به من الغي والضلال في كلّ مجالات العلم، وبرع في كلّ الفنون المتاحة له وقتئذ، فذاع صيته في الآفاق واشتهر أمره بين علماء المغرب والمشرق. ويُعتبر هذا العالم البارز –بحقٍّ– التلميذ الوفيّ لمعلّمه؛ حيث أبدى إعجابه الشديد بمحمد بغيوغو ووصفه بأنه المعلم والمرشد، وهو الشخصية المركزية الذي لازمه وتأثّر به كثيرا من بين شيوخه. وقد أفاد البحثُ بأن بغيوغو أعجوبة زمانه وفريد أقرانه، حيث كان بسبب ثقته في نفسه وأمانته وإخلاصه وحسن ظنه بالناس، تنعكس له صورةُ نفسِه في الناس جميعا، ولا يشكّ بأحد منهم شرا، ظنا منه أن الناس كلَّهم مخلصون مثله. جمع بين التعليم والتأليف، وكان متفنّنا في كثير من العلوم، كالقرآن وتفسيره، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعقيدة، والنحو، والصرف، والبلاغة، والمنطق، والتنجيم. ولم يقف عند إجادتها فحسب بل درّسها للمتعلمين من مختلف المستويات والأعمار، كما أجاز فيها كثيرا من طلبته، مثل أحمد بابا وهذا بشهادة لسانه. وعلى العموم حاول البحث أن يُقدّم مساهمة في مجال الدراسات العلمية والتاريخية، بإلقاء الضوء على جوانب من حياة هؤلاء العلماء الذين قدموا للبشرية زاداً من المعرفة والثقافة فوق ما يُتصوّر.

الكلمات الافتتاحية: أحمد بابا، الحياة الاجتماعية، الرحلة العلمية، محمد بغيوغو.

Résumé

Après le déroulement de cette recherche, on peut dire : Les deux personnalités, Ahmed Baba et Mohamad Bagayogo, ont grandement contribué à l'avancement de la recherche scientifique et ont éclairé la voie à de nombreux étudiants en sciences à cette époque. Ahmed Baba Al-Tanbukti - l'éminent spécialiste de la jurisprudence et des sciences de la charia - est véritablement considéré comme un élève fidèle de son professeur. Il a exprimé sa grande admiration pour Mohamad Bagayogo et l'a décrit comme un enseignant et un guide. Il était la figure centrale qui est restée avec Ahmed Baba. Ce grand savant, unique à son époque, combinait enseignement et édition de livre, et était compétent dans de nombreuses sciences, telles que le Coran et son interprétation, le hadith et ses sciences, la jurisprudence et ses principes, la doctrine, la grammaire, la morphologie, la rhétorique, la logique. En général, la recherche a tenté d'apporter une contribution au domaine des études scientifiques et historiques, en mettant en lumière certains aspects de la vie de ces scientifiques qui ont fourni à l'humanité plus de connaissances et de culture qu'on ne pouvait l'imaginer.

Mots clés : Ahmed Baba- vie Sociale- Parcours Scientifique- Muhammad Bagayogo.

المقـدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي كرَّم الإنسان بالعقل، وشرَّفه بالعلم، القائل:﴿ يَرْفَعُ اللهُ الذين آمَنُوا مِنكُم والذين أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ﴾، [المجادلة: 11] والصلاةُ والسلامُ الأفضلان الأتمّان على أفصح الخلق لسانا، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين بلسان عربيّ مبين، وعلى آله وصحابته الطيبين الأكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيعتبر الحديث عن العلماء ودورهم التعليمي من أهم الموضوعات التي يجب الاعتناء بها في حقل الدراسات والبحوث التاريخية والإفريقية؛ لوجود أعلام وشخصيات علمية مَنسية في الذاكرة الإنسانية لدى كثير من الأفارقة، لا تقلّ جهودُهم أهميةً عن جهود العرب، ومن بين أولئك شخصية أحمد بابا التنبكتي ومحمد بن محمود بغيوغو[1].

[1] . قد ورد هذا اللقب في الكتب القديمة بـ (بغيع)، أما ما أثبتناه فهو الاستعمال الشائع والمشهور في الكتابات الحديثة.

فقد قام الشخصيتان بأعمال جسيمة، وكرّسا حياتهما في سبيل طلب العلم وتعليم أبناء المسلمين، حتى خرج على أيديهما كوكبة من العلماء والكوادر المشهورين في كثير من المجالات العلمية والدينية.

أسئلة البحث (الإشكالية):

- ما هي أبرز الأفكار التي قدمها محمد بغيوغو في مجالات التعليم والفكر؟
- كيف قام أحمد بابا بتوثيق أعمال محمد بغيوغو في كتاباته؟
- كيف يمكن فهم العلاقة بين أحمد بابا وبغيوغو من خلال السياق التاريخي والثقافي؟

الفروض:

يفترض البحث أن:

- ✓ أعمال بغيوغو كان لها تأثير كبير على الفكر التعليمي في غرب إفريقيا.
- ✓ أحمد بابا كان يحظى بتقدير عالٍ لشخصية بغيوغو وأعماله.
- ✓ أن هناك تفاعلاً بين أفكار بغيوغو وأفكار أحمد بابا مما أثر على تطور الفكر الإسلامي.

الأهداف:

يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

- دراسة كيفية تأثير أفكار محمد بن محمود على التعليم والفكر في زمنه.
- تحليل كيف تناول أحمد بابا شخصية الونغري وأفكاره في مؤلفاته.
- تحديد أبرز أعمال محمد بن محمود الفكرية والتأليفية ودورها في السياق الثقافي والتعليمي.
- دراسة العلاقة بين أحمد بابا ومحمد الونغري المعروف ببغيوغو وكيف أثرت على مجالات المعرفة.

المنهج التاريخي

يدرس السياق التاريخي الأحداث التاريخية التي عاصرها محمد بغيوغو وأحمد بابا، وكيف أثرت على كتابات التنبكتي. وسيعرض البحث أولاً نشأة أحمد بابا التنبكتي، والبيئة العلمية التي نشأ فيها، وعلاقته بالعلماء الذين تلقى العلم على أيديهم، مع التركيز على العلاقة المتميزة التي كانت تجمعه بالشيخ محمد بن محمود بغيوغو.

يتناول أيضا بعض التأثيرات الثقافية مبرزا كيف ساهمت الأفكار الثقافية والدينية في تشكيل نظرة التنبكتي تجاه بغيوغو. كما يتناول البحث المكانة الاجتماعية والإصلاحية للعلامة محمد بن محمود بغيوغو، وأثره العميق في الساحة العلمية والاجتماعية.

وفي الختام، نأمل أن يكون هذا البحث إضافة قيمة في مجال الدراسات العلمية والتاريخية، يسهم في إلقاء الضوء على جوانب من حياة هؤلاء العلماء الذين قدموا للبشرية زاداً من المعرفة والفضل.

خطة البحث

يتكون البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة وثبت المصادر، حسب الآتي:

المقدمة وفيها أساسيات البحث

المبحث الأول: أحمد بابا التنبكتي: نسبه ومولده وتتلمذه وسيرة حياته الاجتماعية،

المبحث الثاني: محمد بن محمود بن أبي بكر الونغري المعروف بـ (محمد بغيوغو): نسبه ومولده، رحلته العلمية، تلامذته وحياته الاجتماعية.

الخاتمة: وتحتوي على نتائج هذا البحث والتوصيات.

ثبت المصادر والمراجع.

المبحث الأول: أحمد بابا نسبه ونشأته وتتلمذه وسيرة حياته الاجتماعية

أولا –نسبه ومولده:

أ– نسبه

هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحي بن قُدَّالا بن بَكِّ بن علي بن نِقِّ بن لَقّ بن يحي بن تَشْت بن تَكْبَر بن جِيرَيْ بن أَكَنْجَر بن أنصار بن أبي بكر بن عمر المسوفي، الصنهاجي، الماسني[2]، التكروري، التنبكتي، السوداني.

ب–مولده:

ولد أحمد بابا بتنبكت في 21 ذي الحجة سنة 963هـ/26 أكتوبر سنة 1556م، في عصر الإمبراطور أسكيا داوود بن أسكيا محمد بن أبي بكر[3] وهو من أسرة اشتهرت بالعلم ورئاسة القضاء في المنطقة وتذكر الكتابات التاريخية أن جده محمد أقيت بن عمر هو أول من حلَّ بـ"تنبكت" من أهل بيته قادما من وَلاَتَه حصل ذلك في بداية القرن العاشر الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي، وكان من قبل ساكنا في بلدة "ماسنا"[4]

---

[2]– ينظر: أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن عمر السوداني التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج (مخطوط)، رقمه: 2460، الورقة: 239، معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية، تنبكتو، جمهورية مالي.

[3]– اعتلى العرش في الثاني والعشرين من صفر سنة (955هـ/1549م، وظل يسوس دولتهم إلى أن أتيح به يوم الثلاثاء السابع عشر من رجب سنة991هـ/1582م. ينظر: القاضي ألفع محمود كعت بن الحاج المتوكل الكرمني الوعكري التنبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، نشر: هوداس، طبعة باريس، 1913م.، ص 93، 119. و ; Boubou Hamma ; Histoire Des Songhay Présence africaine, Paris, 1968. pp. 201-200.

[4]– ينظر: عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدي، تاريخ السودان، نشر: هوداس، مكتبة أمريكا والشرق الأوسط، باريس، 1981م ص 35-36. و Mahmoud A. Zouber, Ahmad Baba de Tombouctou (1556-1627), sa vie et son œuvre.pp.16.

ثانيا– نشأته وتتلمذه:

الحقيقة أننا لا نعلم إلا النزر القليل عن طفولة أحمد بابا. إلا أنه بحوزتنا بعض المؤشرات بشأن الظروف التي أتم فيها دراسته. ويبدو أنه نشأ بتنبكت في بيت علم ومكانة وعز، بيت أقيت. وانشغل منذ طفولته بطلب العلم، والجدّ في دربه. اجتهد في ذلك حتى فاق معاصريه، بل سابقيه، وصار فريد عصره يُلجأ إليه في الضروريات، ونجم دهره يهتدى به من الغي والضلال في كلّ مجالات العلم، وبرع في كلّ الفنون المتاحة له وقتئذ. فذاع صيته في الآفاق واشتهر أمره بين علماء المغرب والمشرق. ومن المتعارف عليه أن والده أحمد وعمه أبابكر هما اللذان تكفلا بتعليمه وتربيته.

وإذا كان أحمد بابا محظوظا لكونه نشأ وترعرع في أحضان عائلة يعتبر جل أفرادها من الأدباء، فإن حظه الأوفر تمثل في كونه عاش فترة شبابه في تنبكت خلال أسطع فترات تاريخها الثقافي والحضاري. وقد كان بوسعه حضور مجالس العلماء، وهي كثر في ذلك العصر. وبالتالي لم يكن عليه أن ينتقل كثيرا من أجل التحصيل العلمي والبحث عن الأساتذة الأكفاء لتلقينه العلوم الإسلامية الأساسية. فضلا عن ذلك، ومن الواضح أنه كان لهذه الحلقات والمجالس أثرها البالغ في بلورة شخصيته، ويتضح ذلك من خلال استعراضه لموجز حياة بعض كبار الأساتذة في السودان في ذلك العصر.

ويبدو من خلال الاستقراء لسيرته الذاتية أنه كان مثابراً ويعمل دون كلل وملل، ساعيا، من خلال مجالسته العلماء، إلى إثراء مداركه وإشباع فضوله ورغبته في المعرفة. ونستشف ذلك من أحد النصوص المقتبسة من كتاب "طريق السودان" الذي يصفه بالتلميذ المثابر الجاد.

ويبدو كذلك من أن أحمد أبابا ظل يطلب العلم حتى ناهز سن الثلاثين، وبذلك أصبح الرجل الأكثر رسوخا في العلم في عصره حتى مجيء المغاربة سنة 1591.[5]

وقد وصفه تلامذته وبعض العلماء، ومنهم السعدي بقوله: « لا يناظر في العلم إلا أشياخه ... وكان وقّافا عند الحق ولو كان من أدنى الناس، ولا يداهن فيه ولو الأمراء والسلاطين ».[6] وقال عنه تلميذه أبو عبد الله محمد بن يعقوب الأديب المراكشي في فهرسته: «كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم، والفهم، والإدراك التام الحسن، حسن التصنيف، كامل الحظ من العلوم فِقْهًا وعربيّةً وأصولًا وتاريخًا».[7]

[5] . حياة أحمد بابا التنبكتي: بحوث الندوة التي عقدتها إيسيسكو مراكش22-25 صفر /2-5 سبتمبر 1991 منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو- 1414هـ/1993 ص 72.

[6] – السعدي: تاريخ السودان، ص 35.

[7] – خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد الأمين بن فضل الله المحبي (111 هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي لا. ط، دمشق 1988، ج 2، ص 244.

ووصفه أحمد بن الحاج محمد بن أبي فهرى التواتي فيما نقله البرتلي: «بعالم الدنيا ومعلّمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع رايات مذهب الإمام مالك ومقدّمها».[8]

ثالثا– شيوخه:

تنقل أحمد بابا خلال فترته الطلابية بين عدد كبير من علماء تنبكت بناء على حاجته من الفن المعرفي الذي يتوق إليه، فكان توجهه إلى أحدهم يتم بناء على تيقنه من أنه مجيد تخصصه أكثر من غيره، أو أنه بارع في إيصاله إلى المتلقين بطريقة أنسب وأسهل من نظيره، وهذا هو ما أدى إلى أن يتعدد شيوخه وتطول قائمة أسمائهم، ومنهم:

1- عمه: أبو بكر بن الحاج أحمد.

2- وأبوه: أحمد بن الحاج أحمد؛ كانت صلته بالملك أسكيا داوود متينة؛ ولذا كان كثير التردد بين المدينتين "غَاوُ" وتنكبت"[9].

3- ثم اتصل بالشيخ محمد بن القاضي محمود بن أبي بكر الونغري[10] ولازمه ما فوق عشر سنين وكان أكثر ما أخذه عنه هو الحديث والفقه والمنطق والنحو والتنجيم، وقد أجازه في كل ما علمه بخطه[11].

4- العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت، ولد سنة 913هـ/1507م، كان عالما جسورا، وذا مبدأ ثابت لا يتزحزح عنه أبدا، كان قاضي تنبكت في عهد كل من أسكيا داوود بن أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر، وابنه أسكيا الحاج الثاني بن داوود[12]، وفي زمن هذا الأخير توفي بـ"تنبكت" سنة 991هـ/1583م، فتعطل القضاء لمدة سنة وخمسة أشهر، ثم بعدها وافق أسكيا الحاج الثاني بتولية القاضي عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت يوم الخميس في أول المحرم سنة 993هـ/1585م، بعد استعطاف من الشيخ محمد بغيوغو.

---

[8] – البرتلي: أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1401هـ/1981م. ص 6.

[9]– ينظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 1، 141-142. و .Mahmoud A Zouber, Ahmad Baba de Tombouctou (1556-1627), sa vie et son œuvre.pp.41.

[10] – المشهور بـ"محمد بغيع" التنبكتي، ولد في ولاية أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر بـ"جيني" سنة 903هـ/1498م، وتوفي بـ"تنبكت" يوم الجمعة 19 شوال سنة 1002هـ/1594م، ودفن في مقابر سنكرى. ينظر: أحمد بابا، كفاية المحتاج، 2/ 237 ، 238. تاريخ الفتاش، ص 82. والسعدي، تاريخ السودان، والبرتلي، وفتح الشكور، ص 28.

[11] ـــ ينظر: أحمد بابا السوداني، كفاية المحتاج، تح: محمد مطيع، المملكة المغربية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1421هـ – 2000م، 2/239 – 240.

[12] – ينظر: تاريخ الفتاش، المصدر نفسه، ص 109، 114، 118-119، 121، 123، 124. والسعدي، المصدر السابق، ص 117، 118.

وهو من أساتذة أحمد بابا بالإجازة وهذا ما أثبته هو نفسه في كتابيه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" و"كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" بقوله: "وأجازني كذلك، وكتب لي بخطه"[13].

5- أحمد بن محمد بن سعيد، حفيد الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت، ولد سنة 931هـ/سنة 1525م، وتوفي سنة 976هـ/ سنة 1568م، يعد من أجلاء علماء عصره، وكان أستاذ محمد بغيوغو قبل أن يصير معلم تلميذه أحمد بابا، وعنه يقول هذا الأخير: "أدركته وأنا صغير، وحضرت دولته"[14].

تولى منصبه في التدريس الشيخ محمد بغيوغو بعد وفاته[15]. هذا دون الحديث عن العديد من العلماء الذين التقى بهم أو عاشرهم في المغرب، والعديد من الأطباء المغاربة والمشارقة والأندلسيين والذين غالبا ما يعرض لذكرهم والاستشهاد بهم في كتبه ومؤلفاته، والذين يمكن اعتبارهم أساتذته من الدرجة الثانية أو الثالثة.

فمن تتبع حياة أحمد بابا يجد نفسه أمام مثقف ناضج، وشخصية حملت لواء العربية ردحا من الزمن ونشر العلوم والثقافة العربية الإسلامية وضحّى في سبيلها بالغالي والنفيس، وكفى شهادة كثرة تآليفه وتلامذته. وقد نقلت إلينا المصادر التاريخية ظاهرة ازدحام الطلاب من حوله ودوران الفتيا عليه لفظا وكتابة وما ذلك إلا اعتراف بفضله وعلمه الجم.[16]

ومن المعارف التي كان لهذا العالم قدم راسخة فيها: القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، واللغة العربية، وعلوم البلاغة[17].

رابعا- سيرة حياته الاجتماعية:

واقتداء بالمنهج السائد قديما لدى مؤرخي السودان الغربي من عدم الاعتناء – غالبا- بالسيرة الاجتماعية للشخصيات التاريخية، فإن المعلومات التي تناولت هذا الجانب من حياة أحمد بابا كانت ضئيلة جدا، وتنحصر في الإشارة إلى أسماء عدد من الأعقاب المنتسبين له منهم:

ولده الذي يدعى محمد بن أحمد بابا، كان مرافقا للباشا المغربي علي بن عبد القادر[18] يوم خرج من تنبكت متجها إلى مكة للحج في 14 من صفر سنة 1041هـ/1632م، لكنهم اضطروا على العودة لما وصلوا بلدة "توات" نتيجة هجوم من بعض المرتدة عليهم، وتوفي الفقيه محمد بـ"تنبكت" في 9 ذي الحجة سنة 1056هـ/17 من

---

[13] – نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد، مرجع سابق، ص 354. وكفاية المحتاج، تح: محمد مطيع، مرجع سابق، 378/1.

[14]– ينظر: أحمد بابا السوداني، كفاية المحتاج، تح: محمد مطيع، 139/1.

[15]– السعدي، تاريخ السودان، ص 42.

[16] . ينظر: بحوث ندوة إيسيسكو في مراكش المرجع السابق ص 130.

[17]– ينظر: أحمد بابا السوداني، المصدر السابق، 139/1، 239/2.

[18]– أخ القائد محمد العرب، وهو الباشا المعاصر للملك أسكيا داوود الثاني بن أسكيا محمد باني بن أسكيا داوود الأول، زوجه الملك بإحدى قريباته عقب تصالحه معه. ينظر: السعدي، تاريخ السودان، ص 232- 233، 234.

ديسمبر سنة 1655م[19]، ولعل هو الملمح إليه عند بعض المؤلفين من الشمال الأفريقي، الذي قال بمعرفته لابن له اسمه محمد[20]؛

– وحفيده المسمى محمد الذي يذكر أنه توفي بـ"مراكش"[21]، ويقول كاتب مغربي أنه قابلَ له حفيدا يدرس علم التنجيم بالقاهرة أثناء رحلته للحج[22]، كما ذُكِر له حفيدة عرفت بـ"نانا عائشة" التي عُثر على اسمها في حاشية لإحدى النسخ المخطوطة لـ"نيل الابتهاج بتطريز الديباج" بالمكتبة الوطنية بمدينة "باريس" تحت رقم: 5257[23].

ومن ناحية أخرى أورد كاتب فرنسي مر بمدينة تنبكت في رحلة علمية له، أنه رأى حفيدين له وهما: أحمد أبو بكر وهو عالم وقاض، وعمر بابا الذي كان يحترف يومئذ مهنة الكتابة ونسخ المخطوطات[24].

ومما يمكن استنتاجه من هذه الأسماء ذات الصلة بأحمد بابا هو أنه كان أبا ناجحا، ومربيا رشيدا، استطاع أن يعلم أبناءه، ويورثهم ما تلقاه من أجداده وآبائه من المعارف النفيسة والقيم النبيلة، فحملوا منه لواءها وواصلوا الرقي بها في الحياة، فأخلدوا بذلك مآثره ومآثر أجدادهم وأنفسهم إلى الأبد.

توفي أحمد بابا ضحوة الخميس السادس من شعبان عام ستة وثلاثين وألف هـ، بتنبكت.[25]

المبحث الثاني: محمد بن محمود بن أبي بكر الونغري، المعروف بـ (محمد بغيوغو)

نسبه ومولده

لنعرف الكثير عن مكانة محمد بغيوغو العلمية والثقافية يجب أن نتعرض للحديث عن أسرته. فنجد أن والده محمود بغيوغو من أكبر علماء مدينة جنيّ، وينتسب إلى قبيلة ونغرى. وكان يتمتّع بجودة الذكاء وسرعة الإدراك، للأمور التي يصعب على غيره فهمها، وصل في العلم أقصاه، وفي المنزلة أعلاها. ولاّه الأمير أسكيا إسحاق القضاء في جنّي. وذلك بعد وفاة القاضي العباس كبّ في العام التاسع والخمسين بعد تسعمائة (959 هـ).

---

[19]– ينظر: المصدر نفسه، ص 223.

[20]– أحمد بن محمد الحديقي، كتاب المناقب، 43/2، الدار البيضاء، 1357هـ/1950م.

[21]– ينظر: أحمد بن محمد المقري، روضة الآس العطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، ص 76، منشورات المكتبة الملكية، الرباط، سنة 1964م

[22]– ينظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح: إحسان عباس، ط 2، 314/1،

[23]– ينظر: أحمد بن محمد المقري، المرجع السابق ص 314.

[24]– ينظر: Felix du Bois, Tombouctou la mystérieuse, Paris, 1897. pp. 331. و Mahmoud A. Zouber, Ahmad Baba de Tombouctou (1556-1627), sa vie et son œuvre.pp.36.

[25] . ينظر: البرتَلّي الوَلاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التّكرور، مرجع سابق، ص 37.

ويبدو أنّه تنازل عن القضاء لينتقل مع أسرته إلى مدينة تنبكت الثقافية والعلمية حيث قضى آخر حياته وعلا أمره. وهناك لمع وَلَدَاه أحمد ومحمد وبخاصة محمد بن محمود بغيوغو، موضوع بحثنا هذا. الذي تقلد عمامة شيخ الشيوخ فيها. توفي محمود بغيوغو في أواخر القرن التاسع، ولم نقف على تاريخ وفاته، رحمه الله – وأسكنه فردوسه.[26] وإلى جانب والده اشتهر خاله بالعلم والتفنن فيه وهو من الذين كان لهم الفضل في تكوين شخصية محمد بغيوغو العلمية من الصغر وسنرجع إليه في موضعه.

أما محمد بن محمود بن أبي بكر الونغري، موضوع حديثنا فهو الابن الأصغر لمحمود أبي بكر بغيوغو، ولد سنة 903هـ/1498م. وكان أبوه قاضي مدينة "جنّي" في زمن أسكيا إسحاق الأول بن الحاج محمد بن أبي بكر، وإذا كان هذا سيرة أسرته فليس غريبا أن يوصف هو بكل نعوت الفضل، والعلم، والتعبد، والصبر، والصلاح. وكان بسبب ثقته في نفسه وأمانته وإخلاصه وحسن ظنه بالناس، تنعكس له صورة نفسه في الناس جميعا، ولا يشك بأحد منهم شرا، ظنا منه أن الناس كلهم مخلصون مثله.

طلبة العلم ورحلاته العلمية

وإذا كان أحمد بابا لم يكن بحاجة للتنقل خارج المنطقة طلبا للعلم نظرا لكثرة العلماء وازدهار العلم في وقته فإن أستاذه محمد بغيوغو لم يجد هذا الحظ بل قادته ظروف الحياة إلى أن يتعلم على أيدي كثير من العلماء والفقهاء داخل تنبكت وخارجها.

وعليه فإن رحلته الدراسيّة قد بدأت بوالده القاضي الصالح محمود أبي بكر بغيوغو وعليه أخذ العربية والفقه وعلى يد خاله الفقيه الصالح. ثم رحل لتنكبت مع أخيه أحمد، فلازما الفقيه أحمد بن سعيد في المختصر. ثم حجّا مع خالهما، فلقوا بمصر الناصر اللقاني والتأجوري والزين البحيري، والشريف يوسف، والشيخ ولي الله محمد البكري، وغيرهم. ثم رجع بعد أداء فريضة الحج وملاقاة بعض علماء المشارقة إلى بلده فانتقل نهائيا إلى تنبكت، ولازم الفقيه أحمد بن سعيد فأخذ عنه الفقه والحديث والمدونة والموطأ والمختصر وغيرها من الكتب. كما لازم والد أحمد بابا في الأصول والبيان والمنطق.[27]

وأخذ عن الفقيه الحاج أحمد بن أحمد الأصول والبيان والنطق وقرأ عليه أصول السبكي وتلخيص المفتاح، وحضر عليه جمل الخونجي.[28]

[26] – انظر ترجمته: في السعدي: تاريخ السودان، ص19، والبرتلي: فتح الشكور ص29.

[27] – ينظر أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 601.

[28] – الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري تأليف عبد الرحمن محمد ميغا منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية–المملكة المغربية 1432 هـ/2011م ص 285

وقال عنه تلميذه أحمد بابا إنه كان يتحلى بصبر عظيم على التعليم آناء الليل والنهار وعلى إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا كسل حتى يضجر حاضروه وهو لا يكترث فنفع الله به كثيرا ويضيف أحمد سمعت بعض أصحابنا يقول: "أظن هذا الفقيه شرب ماء زمزم لئلا يمل في الإقراء تعجبا منه لما رئي من صبره". [29]

ومن الفنون المعرفية التي أتقنها الشيخ محمد بغيوغو: القرآن، التفسير، الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعقيدة، والنحو، والصرف، والبلاغة، والمنطق، والتنجيم...؛ ولم يقف عند إجادتها فحسب بل درّسها للمتعلمين من مختلف المستويات والأعمار، كما أجاز كثيرا منهم فيها مثل أحمد بابا وهذا بشهادة لسانه.

مكانته العلمية

كان رحمه الله مجدد القرن العاشر في السودان الغربي، عالما، علامة، متفننا، ويصف أحمد بابا علمه قائلا: «*كان* ... محقّقا، درّاكا، ذكيّا، فطنا، غوّاصا على اللطائف، حاضر الجواب، سريع الإدراك، وجودة الفهم، معروفا بذلك ».[30]

ويعدّ محمد بغيوغو بلا شك أحد الرجال الذين كان لهم أثر بالغ على شخصية أحمد بابا، يقول أحمد بهذا الصدد: ((كان بالنسبة إليّ المعلم والمرشد في مجال حرفة الأدب، ولم يكن لغيره علي فضل بنفس القدر، ولي الحق في أن أقول ذلك)) ثم أضاف: ((كنت أكِنُّ لمحمد بغيوغو إعجابا حقيقيا، وخير دليل على ذلك هو أنني ما برحت ملازمته عشر سنوات، ولا انقطعت عن الاستقاء من علمه ومعارفه)) [31]

وبها يمكننا الجزم بأن أفكار محمد بغيوغو قد أثرت كثيرا في كتابات أحمد بابا وأنه قد أسهم بشكل لا يرقى إليه الشك في تكوين فكر أحمد بابا وتوجيهه، ويتضح من خلال النص السابق مدى الإعجاب الشديد الذي كان يكنه لأستاذه.

ووصفه آخرون بأنه كان صالحا، عابدا ناسكا، متواضعا، لين الجانب، نزيها عادلا محبوبا لدى العامة والخاصة مفتيا من خيار عباد الله الصالحين والعلماء العاملين ملازما للعبادة مبتعدا عن رديء الأخلاق والخوض في الفضول، يسعى في حوائج الناس، محافظا على حرمتهم، ويتفجع لمكروههم، ويصلح بينهم وينصحهم بمحبة العلم وملازمة مجالسه، جمّاعا للكتب. بذاك نفائس كتبه العزيزة النافعة لطلبة العلم. [32]

كان حبّه لأهل العلم عظيما، واعتناؤه بهم شديدا، فبذل لهم نفائس الكتب الغريبة العزيزة، ولم يفتّش عنها بعده، فضاع له بذلك كتب كثيرة. يقول عنه تلميذه أحمد بابا في ذلك:

---

[29] ينظر أحمد بابا: نيل الابتهاج، تحقيق الدكتور علي عمر، المجلد الثاني 295

[30] – أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 601.

[31] – المرجع نفسه والصفحة

[32] – الحركة الفقهية المرجع السابق 286

«وربما يأتي لِباب داره طالب، فيرسل له براءة (رسالة) فيها اسم كتاب يطلبه، فيخرجه من الخزانة، ويرسله له، من غير معرفة من هو ... مع محبته للكتاب، وسعيه في تحصيله شراء ونسخا. وقد جئته يوما أطلب منه كتبَ نحو، ففتّش في داره، فأعطاني كلّ ما ظفر به منها».[33]

وفيما يخصّ جهوده، فإنه قسم أوقاته بين قضاء حوائج النّاس الاجتماعية والدينيّة، وبين التدريس والتأليف يقول أحمد بابا: «أدركته أنا يقرئ من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبير دولا مختلفة، ثم يقوم لبيته، ويصلّي الضحى مدّة، وربما مشى بعدها للقضاء في أمر النّاس، ويصلح بين الناس. ثم يقرئ في بيته وقت الزوال، ثم يصلّي الظهر بالنّاس ويدرّس إلى العصر ... ثم يذهب إلى موضع آخر، يدرّس فيه إلى الاصفرار، أو قريبا منه وإذا صلّى المغرب درّس في الجامع إلى العشاء».[34]

وله تعليقات وحواش على هفوات شرح خليل وغيره، وله طرر تتبع فيه شرح التتائي من أوله إلى آخره فبيّن ما فيه من السهو نقلا وتقريرا في غاية الإفادة، جمعها تلميذه أحمد بابا في عدة كراريس تأليفا مستقلا. وله أيضا كتاب سمّاه قرعة الطيور، له أعمال لازالت مخطوطة ومتناثرة بين المكتبات الخاصة والعامة في المنطقة وفتاوى عديدة لم تصل إلينا. بقي رحمه الله طول حياته في التدريس والفتوى والقضاء بين الناس إلى أن توفى يوم الجمعة من شوال عام اثنين وألف هجرية. ص 286 منه[35]

حياته الاجتماعية

وإن كانت المصادر لم تحفتنا بكثير من مكانته الاجتماعية إلا أن الحال تقتضي وقتئذ أن يكون محمد بغيوغو قد لعب دورا كبيرا في المجتمع حيث ورد في كثير من المصادر التاريخية أن العلماء كانوا عماد الحياة الاجتماعية وكانوا أصحاب العقد والحل. بل كان الملوك والسلاطين يخافون منهم ويبجلونهم. وصفه أحمد بابا بقوله:

«من خيار عباد الله الصالحين، والعلماء العاملين مطبوعا على الخير، وحسن النية، وسلامة الطويّة، حتى كاد يتساوى عنده الناس في حسن ظنّه بهم، وعدم معرفة الشرّ. كان يسعى في قضاء حوائج الناس، ويضرّ نفسه في ذلك، حتى كان يتوجّع لمكروه أصاب أحدهم. وكان كذلك يهتمّ بتطهير نفوسهم من دنس الجهل حيث كان ينصحهم بطلب العلم، وملازمة تعلّمه»[36].

ويسترسل أحمد بابا في ذكر محاسنه أنه تحلى بملازمة العبادة وصلاح النية والتجافي عن رديء الأخلاق وإضمار الخير لجميع البرية حتى للظلمة، مقبلا على ما يعينه متجنبا الخوض في الفضول [37].

---

[33] – أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 600.

[34] – أحمد بابا: نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص 601.

[35] – ترجمته في: أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 600 – 603، ومحمد مخلوف: شجرة النور الزكية، ص 287، وأحمد بابير: السعادة الأبدية، ص 34 – 35. النسخة المعتمدة، والحركة الفقهية ص 286.

[36] . أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص 600.

[37] – أحمد بابا كفاية المحتاج، تحقيق د علي عمر، المجلد الثاني ص238

وقد عُرف محمد بغيوغو بمخافة الله وغلبة العفة وكراهية الاستعلاء على خلق الله، حتى كره أن يتولى أي منصب سواء كان دينيا أم سياسيا، خوف الإيقاع بالرعية أو التعدي على حق من حقوقهم، ولذلك رفض القضاء يوم رغب أسكيا إسحاق الأول بن أسكيا محمد بن أبي بكر، أن يوليه إياه بمدينة جنّى، وكان يومئذ في زيارة تفقدية لأحوال الرعية، والسبب نفسه هو ما حفزه على الامتناع عن التوقيع على وثيقة الباشا محمود بن علي بن زرقون[38] التي كتب فيها للسلطان المغربي المنصور أحمد الذهبي[39]، ما يبرر قبضه على القاضي عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت ...، وقد خُيِّر بين التنفيذ لما أمر به وقطع اليد، فكان رده على الباشا مبتسما: "قطعك اليد أفضل وأولى من كتابة شهادة الزور، فالعياذ بالله، فأنا والله أختار قطع الرأس عليه"[40].

تلامذته

حسب الإشارات الواردة في طيات بعض الكتب يبدو أن محمد بن محمود بغيوغو قد خرّج طلابا وعلماء كثيرين ولكن للأسف، فهو ممن ظلمتهم الدراسات التاريخية فلم يجدوا حظهم من الترجمة وما يستحقون من ذكر جهودهم التعليمية. فمن الغريب أن نجد محمد بغيوغو الذي وُصف بالصبر على التعليم بصفة عامة وعدم الملل والكسل في تعليمِ البليد بصفة خاصة وما قيل عنه أنه يلازم الإقراء من صلاة الصبح إلى الضحى الكبير، وما قال عنه أحمد بابا "لازمته أكثر من عشر سنيين فهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به" ومع كل هذا وذاك لم نجد له تلاميذ جمة.

ونذكر من تلامذته الشيخ الخونجي من غير أن نقف على ما أخذه عليه والفقيه أحمد بابا الذي لازمه أكثر من عشر سنين، فقرأ عليه أكثر من عشرين كتابا في الفنون والعلوم المختلفة. أعاد قراءة بعضها مرّات عديدة، فختم عليه مختصر خليل وفرعي ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير، وختم عليه مختصر خليل أكثر من عشر مرات وحضر عليه التوضيح، وقرأ عليه الموطأ قراءة تفهم، وختمه عليه، وحضر عليه المنتقى والمدونة، وغيرها من الكتب الفقهية والعربية واللغوية[41]

---

[38]– هو الباشا الذي أرسله أحمد المنصور الذهبي إلى بلاد سنغي ليخلف الباشا جودر.

[39]– هو السلطان المنصور بالله أبو العباس مولاي أحمد الذهبي بن محمد الشيخ بن محمد أمغار الشريف بن عبد الرحمن، وأمه جارية اسمها "لَلَّـــهْ عودة" تنتسب إلى بني فلال، ولد بفاس عام 1549/956م، وبويع بالسلطنة في ساحة معركة وادي المخازن يوم الاثنين آخر جمادى الأولى سنة 986 /4 من أوغسطس 1578م، توفي ضحوة يوم الثالث عشر من الربيع النبوي عام 1012هـ/1603م، وهو عائد من مدينة فاس إلى مراكش، فحمل إليها وبها دفن. ينظر: السعدي، تاريخ السودان، ص 206. راجع تاريخ السودان ص206.

[40] – ينظر تاريخ الفتاش، ص 176، 177.

[41] – الحركة الفقهية ص 285

يقرّ أحمد بابا بفضله عليه قائلا: «وبالجملة فهو شيخي وأستاذي، ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه – رحمه الله ونفعه – وأجازني جميع ما يجوز له، وعنه، وكتب لي بخطه في ذلك. وأوقفته على بعض تآليفي وتقاييدي فكتب لي بخطه الثناء والموافقة، بل كتب عني أشياء من أبحاثي لحسن نيته. وسمعته ينقل في دروسه بعضها لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعيّن».[42]

توفي القاضي محمد بغيوغو بن محمود في تنبكت يوم الجمعة 19 من شوال سنة 1002هـ/1594م، ودفن بمقابر سنكورى[43].

الخـــاتـمة:

النتائج:

نستنتج من هذا البحث الآتي ذكره:

1- إنّ محمد بغيوغو هو أحد الرجال الذين كان لهم أثر بالغ على شخصية أحمد بابا، حتى وصفه الأخير بالمعلم والمرشد، وكان يكنّ له إعجابا حقيقيا، ولازمه عشر سنوات، ينهل من غزير علمه ومعارفه.

2- إنّ أفكار محمد بغيوغو قد أثرت كثيرا في كتابات أحمد بابا وأنه قد ساهم بشكل كبير في تكوين فكر أحمد بابا وتوجيهه.

3 – من أبرز أعمال محمد بن محمود الفكرية والتأليفية: تعليقات وحواش على هفوات شرح خليل وغيره، وله طرر تتبع فيه شرح التتائي من أوله إلى آخره فبيّن ما فيه من السهو نقلا وتقريرا في غاية الإفادة، جمعها تلميذه أحمد بابا في عدة كراريس تأليفا مستقلا. وله أيضا كتاب سمّاه قرعة الطيور، كما له أعمال لازالت مخطوطة ومتناثرة بين المكتبات الخاصة والعامة في المنطقة وفتاوى عديدة لم تصل إلينا.

ثبت المصادر والمراجع:

تنقسم المصادر والمراجع إلى:

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: المصادر العربية:

أ- المخطوطات:

1- أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر السوداني التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، رقمه: 2460، وعدد أوراقه: 352، معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية، تنبكت، جمهورية مالي.

ب: المطبوعات:

[42] أحمد بابا نيل الابتهاج، المرجع السابق، ص 602.

[43]- ينظر: تاريخ السودان، ص 212. وتاريخ الفتاش، ص 91.

1- أحمد بابا السوداني، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تح: محمد مطيع، مطبعة فضالة، المحمدية، المملكة المغربية، سنة 1421هـ/2000م.

2- أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج (المقدمة)، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م.

3- أحمد بابا السوداني، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق الدكتور علي عمر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى القاهرة 1423هـ/ 2004

4-أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج تحقيق الدكتور علي عمر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى القاهرة 1422هـ/ 2003

5- أحمد بن محمد الحديقي، كتاب المناقب، 43/2، الدار البيضاء، 1357هـ/1950م.

6- عبد الرحمن حمد ميغا، الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية 1432 هـ/2011م ص 286

7- حياة أحمد بابا التنبكتي: بحوث الندوة التي عقدتها إيسيسكو مراكش22-25 صفر /2-5 سبتمبر 1991 منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو- 1414هـ/1993 ص 72

8- محمد الأمين بن فضل الله المحبي (111 هـ)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي لا. ط، دمشق 1988، ج 2، ص 244.

9- القاضي ألفع محمود كعت بن الحاج المتوكل الكرمني الوعكري التنبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، نشر: هوداس، طبعة باريس، 1913م.

10- عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، تاريخ السودان، نشر: هوداس، مكتبة أمريكا والشرق الأوسط، باريس، 1981م.

11- أحمد بن محمد المقري، روضة الآس العطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، منشورات المكتبة الملكية، الرباط، سنة 1964م.

12- المحبي: المحبي محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد المحبي الحموي الدمشقي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، سنة 1876م.

13- البرتلي: أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1401هـ/1981م.

ثالثا: المصادر باللغة الأجنبية:

1-Boubou Hamma : Histoire Des Songhay ; Présence africaine, Paris, 1968.

2- Félix du Bois, Tombouctou la mystérieuse, Paris, 1897.

3- Mahmoud A. Zouber, Ahmad Baba de Tombouctou (1556-1627), sa vie et son œuvre. G. P. Maisonneuve Et Larose, 11 rue Victor-Cousin.Paris.1977.